الفصل الأول

عصر ابن قتيبة

١ ـ الحالة السياسية

عاش أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فى عصر بنى العباسى ، فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، ولد على عهد المأمون بن الرشيد ، أيام كانت الدولة العباسية وهى فى أوج مجدها وازدهارها . قد امتدت سيطرتها إلى أطراف الصين والهند شرقاً وإلى شواطئ المحيط الأطلسى غرباً ـ باستثناء دولة الأغالبة والأدارسة بإفريقيا .

وكان المأمون يستعين بجماعة من الرجال الأقوياء ، اعتمدت عليهم دولته ، واستقرّ بهم ملكه أمثال طاهر بن الحسين ، وهرثمة بن أعين ، والفضل بن سهل . وقد بلغ من قوة آخرهم ، واتساع نفوذه أن أشيع أنه تغلب على المأمون وأنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده ، وأنه كان يبرم الأمور على هواه . ولم تكن هذه الشائعة فيما يبدو إلا جزءاً من ذلك الصراع الذى استفحل بعد موت الرشيد بين العرب والفرس على السلطان ، واتخذ صورة عنيفة فى حركة الفتنة بين الأمين والمأمون ، وفى سلسلة الاضطرابات والحروب الأهلية بين الهاشميين والعلويين أبلى فيها قواد المأمون بلاء حسناً ، كما ظهرت فى كثير من الفتن التى كانت تثور هنا وهناك فى أنحاء مختلفة فى مثل فتنة أبى السرايا فى الكوفة ، وقد انتهت باستيلاء هرثمة بن أعين عليها ، فقتل أبو السرايا زعيم الفتنة . وصلب ببغداد سنة ٢٥٠ هـ ؛ وكفتنة نصر بن شيث الثائر العربى الذى غلب على شمال العراق والشام . وكانت دعوته قائمة على أساس الانتصار للعرب من تغلب الفرس على الخلافة ، وكان يقول : « إنما حاربتهم ـ أى بنى العباس ـ

محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم »[١] .

والذى يظهر من بين تلك الفتن جميعاً ، ويميز ذلك العصر إنما هو فتن الطالبيين وثوراتهم ، فكان لهم فى مكة إمام هو محمد بن جعفر الصادق ، تجمعوا حوله وانتصروا له . وقام فى اليمن بعض ولد عقيل بن أبى طالب ، وقد تعرضت دولة المأمون لضرباتهم فى كل مكان ، وحفت بها الأخطار ، فلم تترك ثورتهم مكاناً إلا استعرت نارها فيه ، وامتدت لهبها إلى بغداد عاصمة الخلافة امتداده إلى البصرة والكوفة وبعض العواصم الأخرى .

واجه المأمون كل تلك الأحداث مجتمعة أو متتابعة ، فما لان لها ولاتخاذل ، بل واجهها جميعاً ، وعالجها بالقوة حيناً وبالحكمة والسياسة حيناً آخر . وكان من حسن سياسته أن اختار لولاية عهده على الرضا بن موسى بن جعفر الصادق — ثامن أئمة الشيعة الاثنى عشرية — ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ، ولبس الثياب الخضر زىّ العلويين ، وذلك لهدئ ثوراتهم المندلعة ، وليكسبهم إلى جانبه . فأغضب هذا جماعة أهل السنة ، واعتبره المسعودى المؤرخ من زلات المأمون ، وثار لذلك جماعة من أهل بغداد وبايعوا بالخلافة إبراهيم بن المهدى عم المأمون .

وعندما تخلص المأمون من العلويين ، وخفت وطأة ثوراتهم ، أقلع عمّا كان قد ذهب إليه ، فعاد إلى السواد لباس آبائه وأجداده .

وقاوم المأمون طغيان العنصر الفارسى بانتقاله من مَرْو إلى بغداد ليرضى العرب ثم بتدبيره — فيما يقال — قتل الفضل بن سهل ليتخلص من نفوذه ، وليحدّ من غُلَواء الفرس بعد أن استأثروا بشؤون الخلافة وأمور الدولة وكادوا أن يحجزوه عن شعبه وسلطانه .

واستتب الأمر للمأمون بعد وقت عصيب ، فأمسك بصولجان الخلافة فى قوة واقتدار . واتجه إلى التنظيم الداخلى والبناء فى شتى أنحاء ملكه ، وأصبحت بغداد فى عصره موئل العلماء والأدباء ، ومجلى مظاهر الحضارة الزاهرة . وكان لشخصية المأمون وأخلاقه أثر كبير فيما كسبته البلاد من إصلاح وازدهار . فقد

---

(١) « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » ص ٢١٧ .

كان رجلاً عاقلاً ، كريم الخلق ، محبًّا للعلوم والآداب ، مشجّعاً للعلماء والأدباء ممّا سبّب تلك النهضة الكبرى فى ضروب المعرفة ، وفى علو شأن الفكر وقيام كثير من الحركات الفكرية من مثل حركة المعتزلة التى آمن بها المأمون وشجّعها وقرّب علماءها ، ومكّن لهم فى بلاطه ودولته . وعاونهم على معارضيهم من أهل السنّة معاونة أدبية ومادية ، فشجع طرقهم فى المناظرة والجدل ، ودعا إلى احترام آرائهم ؛ كذلك قويت حركة الترجمة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية فأكسبتها ثروة كبيرة ، ووسعت آفاق الفكر الإسلامى ، وكانت لها آثارها البعيدة المدى فى التراث الفكرى العربى .

وكان من وزراء المأمون جماعة من الفضلاء البارعين فى العلم والأدب ، والكتابة أمثال أحمد بن أبى خالد ، وأحمد بن يوسف الكاتب البليغ ، وعمرو بن مسعدة ، ويحيى بن أكثم التيمى وقد كان من المقربين إليه المستشارين فى مهام الأمور ، وكان فى أصفيائه أيضاً الفقيه الحكيم العالم ثمامة بن أشرس المتكلم ذو الحظوة والرأى لديه .

وتوفى المأمون ، وأعقبه أخوه المعتصم ، تولى سنة ٢١٨ هـ ، وكان قائداً شجاعاً جريئاً ، تمت فى عهده كثير من الانتصارات العظيمة ، ومنها انتصاره على إمبراطور الروم وفتح عمورية الذى خلده أبو تمام فى قصيدته المشهورة :

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتُب فى حدّه الحدّ بين الجدّ واللعبِ

وانتصاره على بابك الخرمى ، وأسره وصلبه .

وسار المعتصم على النهج الذى سار فيه سلفه المأمون فى تشجيع العلم والأدب وتقريب المشتغلين بهما ، كما استمر فى تعضيده للمعتزلة ، واتخذت سياسته فى مؤازرته لهم طابع القوة ، ممّا دعا كثيراً من أهل السنّة ومن ورائهم العامة إلى التذمر ؛ ففى عهده حدثت محنة خلق القرآن المشهورة والتى راح ضحيتها كثيرون ، وتعرض للاضطهاد والتعذيب آخرون من علماء أهل السنّة وكان بينهم الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف .

وكان المعتصم رجل حرب ، ولم يكن له دهاء المأمون ولا حكمته ؛ فوجّه اهتمامه إلى الجيش ، فعزّزه ، واجتلب له الجند الأتراك ، لما عرف عنهم من القوة ، وشدة المراس فى الحرب . ولكن لم تلبث تلك السياسة حتى أدّت إلى غلبة الأتراك على الجيش ثم على مراتب الدولة ، فأصبحت القيادة فى أيديهم ، وكان التنافس بينهم شديداً ، فاضطربت الأمور واختلّت ، ومهّد ذلك للانحلال والضعف الذى طرأ على الخلافة من بعد ، والذى بدأ بقتل المتوكل ثم بسلسلة من الاضطهاد والعزل والقتل تعرض لها الخلفاء بعده .

وكان من نتائج ضعف السلطة المركزية فى بغداد — والممثلة فى الخلافة — أن قلّت هيبتها وتقلص نفوذها على الأطراف مما أطمع كثيراً من الأمراء والحكام فى الاستقلال والخروج على الخلافة . ومن هؤلاء آل طاهر والسامانيون والصفاريون فى الشرق والطولونيون فى مصر .

ولقد وزر للمعتصم جماعة من المشهورين مثل محمد بن عبد الملك الزيات الأديب الشاعر ، وأحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، وكان يرى رأى المعتزلة ويتعصّب للعرب . ولم تطل خلافة المعتصم أكثر من تسع سنوات ، فتوفى سنة ٢٢٧ هـ وتولى بعده الواثق .

وفى عصر الواثق (٢٢٧ هـ — ٢٣٢ هـ) اشتد نفوذ القواد الأتراك ، وعلى رأسهم أشناس ، وثار على الدولة أعراب بنى سليم قرب المدينة ، وبنو هلال وبنو نمير باليمامة .

وكثرت مصادرة الأموال فى عهده . حتى إنه صادر أموال جماعة من الكتّاب .

وجاء بعده المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) ، وبدأ عهده بتغيير السياسة التى كان عليها أسلافه المأمون والمعتصم والواثق ، وهى الأخذ بيد المعتزلة ، فأمر الناس بترك النظر والمباحثة والجدال ، والتسليم بالحديث والسنّة . ونكب محمد ابن عبد الملك الزيات كما أبعد القاضى ابن أبى دؤاد . واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وجالس الفتح بن خاقان ، وقد شعر المتوكل فى حكمه بثقل الأتراك ،

فأراد أن ينتقم منهم ، وأن يرجع إلى العرب يحتمى بهم ويثير عصبيتهم . فعزم على الإقامة بدمشق ، فتوجس القواد خيفة ، وشغبوا عليه ودسّوا له من يقتله فى المجلس ويقتل معه الفتح بن خاقان ، فكان أول خليفة من بنى العباس يقتل على تلك الصورة بأيدى الخدم .

ومنذ ذلك الوقت بدأ الخلفاء يجنون ثمار غرس المعتصم . فتسلط القواد على الخلفاء وأمسكوا بالزّمام وولّوا من شاءوا وعزلوا أو قتلوا من لم يخضع لسلطانهم حتى تعاقب على الخلافة فى خمسة عشر عاماً ستة خلفاء هم المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى وابن المعتز والمعتمد ، وصارت الخلافة لعبة فى أيدى الأتراك حتى قال أحد الشعراء يرثى لتلك الحال :

خليفةٌ فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقولُ الببّغا

وفى عهد المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) بدأ الخلفاء يستعيدون السلطة التى تفلتت من أيديهم وذلك بفضل الموفق أخى المعتمد الخليفة لما أبداه من حزم وشدة بأس ، فقد تولى بنفسه إمارة الجيوش ، وحارب الخارجين ، فانتصر على صاحب الزّنج وأخمد الثورة التى أشعلها فى الجنوب وهدد بها الدولة زمناً طويلا .

ولكن الأمور لم تستقر للدولة العباسية ، بل أخذت الأطماع تهددها من الشرق والغرب . فالطاهريون ، والسامانيون . والصفاريون يتنافسون للاستقلال بالشرق ، والروم يغيرون على الثغور ، والطولونيون ينتهزون الفرص فيستقلون ويكونون دولة بمصر ويستولون على بعض أجزاء أخرى يضمونها إليهم .

وهكذا عاش ابن قتيبة فى عصر أسماه المؤرخون العصر العباسى الثانى ، لأنه بدأ بانحلال الدولة العباسية ، وانتقال السلطة من أيدى الخلفاء إلى أيدى الأتراك ، ولأنه بدأ بانحسار سلطانهم عن بلاد كثيرة .

٢ ـ الحياة الاجتماعية

كان المجتمع البغدادى فى عصر بنى العباسى يجمع خليطاً من العناصر المختلفة والأجناس المتباينة : كان فيه العرب ، والفرس ، والسريان ، والترك ، والروم . ولم يكن العنصر العربى سائداً ، وإن كان يحتفظ لنفسه بمراكز القيادة والتوجيه ، وكانت الطبقة العليا كلها تقريباً منه ، ولكن كان يشاركه فى ذلك العنصر الفارسى الذى بدأ يتغلب ويأخذ لنفسه مكانة يزاحم فيها العرب على القيادة ، فكان منهم وزراء وقادة وأمراء وحكام كما كان من العرب ، وكان منهم علماء وحكماء وفقهاء وأدباء وشعراء ...

وظلت المنافسة بين العرب والفرس تأخذ طريقها إلى الحياة العباسية منذ بدء الدولة العباسية ، ومقتل أبى مسلم الخراسانى على يد الخليفة العباسى ، ثم ظهرت فى صورة عنيفة أخرى فى نكبة البرامكة على يد هارون الرشيد . ولم يقف تغلغل الفرس بل ظلوا يناضلون وكان نفوذهم فى عصر المأمون كبيراً . وقد روى طيفور أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال : « يا أمير المؤمنين انظر إلى عرب الشام كما نظرت إلى عجم خراسان . قال : أكثرت على يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، أما قضاعة فإنها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله عز وجل مذ بعث نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهم شارياً ، اعزب فعل الله بك »[1] .

ولم يكن الأتراك أقل نشاطاً من العرب والفرس ، ولكن نشاطهم كان متجهاً إلى جوانب بعينها ، فكان اهتمامهم مركزاً فى الجيش ، وفى القصر ، وكان القواد منهم يلعبون بمصاير الخلفاء ، وخدم القصر يأتمرون على أصحابه ؛

(١) « محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية » ص ٢٢٦ .

أما الجند فكانوا يثيرون الشغب بين العامة بما يرتكبون من السلب والنهب .

وكان إلى جانب تلك الطبقة العليا والوسطى الطبقات الدنيا مكونة من جماعات الرقيق والموالى وأبنائهم وممن كانوا خليطاً . نصفهم من الفرس أو الترك أو اليونان ، وكانوا يسمون الهُجناءَ أو أبناء الإماء والسرارى . قال فيهم أحد الشعراء :

إنّ أولادَ السّرارى كثروا يا ربٌّ فينا
ربِّ أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا[1]

وكانت كل جماعة من الأجناس المختلفة تمتهن مهنة برعت فيها . فاليونان عرفوا بالحكم والآداب ، والعرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ، ولا أطباء ولا حساباً ولا أصحاب فلاحة . فيكونوا مهنة ، ولا أصحاب زراعة لخوفهم من صغار الجزية ... بل عرفوا بالاشتغال بقول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وقيافة الأثر وحفظ النسب ، والبصر بالخيل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع ، وعرف الأتراك بالحروب ، وعرف الهنود بالحساب والنجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة[1] . وقد تزاوجت هذه الخبرات كلها ، والتقت عقائد العرب والفرس واليونان والترك والهنود ، وامتزجت عاداتهم وتقاليدهم ، وكونت منها نسيجاً مميزاً تلونت عناصره واتحدت فى اتساق ونظام واحد جمع بينها الذوق الإسلامى .

واشتهرت بغداد بالترف الزائد والغنى وزخرف الحضارة ، وتغلغل هذا فى حياة الناس ، وكانت لحياة الترف دواعيها المختلفة ، فالخيرات متدفقة على العاصمة من الأقاليم المختلفة ، والتجارة تغدو وتروح ، وتخترق قوافلها مختلف الأصقاع من الصين والهند شرقاً إلى بلاد الروم والمغرب غرباً ، وتمخر سفنها عباب البحار حاملة ما افتنّ فيه كل بلد وأبدع فأتى به إلى بغداد لتزين به قصور الخلفاء والأمراء وسادة القوم .

---

(١) « تاريخ العرب » لفيليب حتى ٢٥ ص ٤١٠ و « ضحى الإسلام » ١ / ٢٦ .
(٢) « ضحى الإسلام » ١ / ٢٢٦ ط ١٩٣٤ م .

وكان من مظاهر ذلك الترف كثرة الجوارى والغلمان ، وهم من لوازم القصور ومجالس اللهو والسمر ، لذلك كثرت الجوارى فى بيوت الناس ، واختلفت أعدادهن وميزاتهن من جمال وأدب وغناء بتفاوت غنى أصحابهن . وقد اعتنى بالجوارى فى ذلك العصر ، فعلمن وثقفن ودربن على الغناء ، واشتهرت من بينهن كثيرات بقول الشعر والغناء .

واختلفت جنسيات الجوارى فكان منهن هنديات وسنديات ، ومكيات ومدنيات ، وسودانيات وحبشيات ، وتركيات ورروميات وأرمنيات . وقد شبه الجاحظ أصناف الرقيق عند النخاسين بألوان الحمام[١] .

ويروى أن المتوكل جمع فى قصره أربعة آلاف سرية من أجناس مختلفة . ودخل أحمد بن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلباً روميات مزنّرات قد تزيّن بالديباج الرومى ، وعلقن فى أعناقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون ، فقال له المأمون : ويلك يا أحمد قد قلت فى هؤلاء أبياتاً فغنى فيها ثم أنشد :

ظبـــاء كالدنانير ملاح فى المقاصير
جـــلاهن الشعانين علينا فى الزنانير
وقد زرفن أصداغاً كأذناب الزرازير
وأقبلـــن بأوساط كأوساط الزنابير

وقد أثرت الجوارى فى حياة المجتمع البغدادى ، لما كن يتمتعن به من حرية وثقافة ، وظرف .

وعمرت بغداد بقصورها الفاخرة الزاخرة ، المزدانة بضروب الزينة ، وألوان الرياش النفيس ، وفنون المتع .

وعمرت مجالس الشراب فى القصور والحانات بالنشاط ، فكان يؤمها الشعراء ينشدون الشعر الرقيق ، والأدباء يتنادرون ويتبادلون الأحاديث الطلية ،

---

(١) « نفس المصدر » ١/٨٧ .

وكان يسمع فيها الغناء والموسيقى .

واشتهر أهل بغداد بالظرف ، والنظافة ، والملبس الجميل الفاخر من أنواع الخز والديباج ، وعرفوا بالرقة والكياسة ، فقد هذبت الحضارة سلوكهم ، وانتشر بينهم الذوق الجمالى ، وعشقوا الفن فى صوره المختلفة ، ومالوا للجمال فى الوجوه والصور ، وفى اللباس والسكن ، وفى الصوت ، وتعشقوه فى ألوان الزهور وعبيرها ، وفى العطور والطيب

وأحبوا اللهو فى الأعياد والمناسبات ، وشارك المسلمون النصارى واليهود فى أعيادهم ومطارحهم ، فكان الخلفاء يمتعون أنفسهم بزينة جواريهم فى أيام الشعانين ، وكان الشعراء والناس يطربون ويشربون ويفرحون فى أعياد النيروز ، فيخرجون إلى الرياض ، ومطارح اللهو ، والأديرة ، ويقضون أوقاتهم فى القصف والشرب ، وسماع الألحان .

وشرب الناس الخمر وأسرفوا فيها ، وكثرت الحانات فى بغداد ، كما كانت الأديرة تعتقها وتبيعها . واختلف الناس حول الخمر وأنواعها ، فأحل بعضهم النبيذ ، وحرمه آخرون ، وألف ابن قتيبة كتابه فى « الأشربة » يصور ذلك الصراع بين مُحليه ومُحرميه . وصار القول فى الخمر ومجالسها من موضوعات الشعر المعروفة التى يحبها الناس ويرددونها ، والتى يتكثر فيها الشعراء ويتأنقون ، فالنواسى ومسلم بن الوليد وغيرهما ممن عرفوا بذلك وتفننوا .

ويبدو أن الطبقة التى عبّت من نعيم الحضارة وزخرفها هى الطبقة العليا ، طبقة الحكام من خلفاء وأمراء وقواد ، ومن لفّ لفهم أو تعلق بهم ، وجماعة قليلة من الطبقة الوسطى من التجار وكبار الموظفين وأصحاب الحرف والمهن المربحة . أما الطبقة الدنيا ، فقد كانت تعيش فى بغداد على الحرمان ، وإن أصابت بعض ما يتفضل بإنفاقه الأثرياء والمقتدرون . وكان عامة بغداد على درجة كبيرة من الحساسية السياسية والدينية ، فكثيراً ما ثاروا على الحكام لانحرافاتهم السياسية والدينية ، وقد ناصر عوام بغداد الأمين على المأمون ، ونصبوا

إبراهيم المهدى . وثاروا مع الحنابلة لمقاومة موجات الإباحية والإلحاد .

ومهما يكن من شيء فإن صور الحياة البغدادية قد ظهرت متألقة فى كثير من الكتب ، وقصص « ألف ليلة وليلة » . وقد قال المسعودى المؤرخ مصوّراً حياة بغداد أيام المتوكل : « وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورقة العيش بها أيام سراء لا ضراء » . كما قال بعضهم : « كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر . وأمانى الحب ، وأيام الشباب » .

٣ ــ الحياة الفكرية والأدبية

ا ــ طلب العلم وحرية الرأى :

بدأ هذا العصر بالمأمون ، وكان عالماً أديباً محبًّا للعلم والأدباء ، يهوى مجالستهم ، ويعقد المناظرات ويشترك فيها ويجيز المتفوق المبرز . ويروى عن حبه للعلم أنه قال لأحد بنى العباس وقد سأله : أيحسن بمثلى طلب العلم ؟ فقال : نعم ، والله لأن تموت طالباً للعلم أزين بك من أن تموت قانعاً بالجهل[١] .

وأطلق المأمون حرية القول . ولم تغد عصبية الخلفاء للعنصر العربى مثلها فى عهد بنى أمية فبدأت الأقلام تجول والألسنة تتحرك . وقويت حركة الشعوبية[٢] ، والطعن فى العرب ، وقد أدت هذه الحركة إلى نشاط فكرى كان من ثمراته مجموعة من الكتب تتكلم فى النقص من العرب وقلة محصولهم فى الثقافة والحضارة ، ويقابلها مجموعة أخرى تنتصر لهم ، ومن هؤلاء ابن قتيبة ، وله كتاب فى تفضيل العرب على العجم[٣] .

ب ــ المعتزلة وأهل السنة :

واهتم المأمون بالمناظرة بين العلماء فى مسائل الدين والفلسفة ، وكان يجمعهم

---

(١) «الموشى» ط الخانجى ١٩٥٣ ص ١٢ .

(٢) الشعوبية : قوم لا يفضلون العرب على العجم .

(٣) نشره كرد على فى « رسائل البلغاء » .

إليه . ذكر طيفور فى تاريخ بغداد أن يحيى بن أكثم قال : « أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً »[١] . وأهم موضوع شغل به وشغل الناس مسألة خلق القرآن التى تركز حولها الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة . وعرف المأمون برأيه الحر ، وحبه للفلسفة ، ولذلك قرب المعتزلة والمتكلمين . واعتنق آراءهم . وانتصر لهم بالقول والعمل ، وتتبع أعداءهم فضيق عليهم وآذاهم .

واستن المعتصم والواثق من بعده سنته ، فنال أهل السنة وأصحاب الحديث كثير من الضيم . فعذب أحمد بن حنبل صاحب المذهب المشهور وغيره من الفقهاء والأعلام . وجاء المتوكل ، وكان لا يميل للنظر والكلام ، فأبطل نصرة المعتزلة ، وعاد للحديث والسنة . وأمر الناس باتباعها وترك ما دونها .

وكانت حركة المعتزلة وأهل السنة من أبرز الحركات الفكرية فى القرن الثالث الهجرى ، لذلك نرى أن نبرز وجوه الخلاف الرئيسية بينهما .

أولا — القدر وأفعال العباد ، كان المعتزلة يرون أن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب ، فى حين يرى أهل السنة أن الأعمال مخلوقة لله ، وليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم . ولذلك سمى المعتزلة أهل السنة بالقدرية لأنهم أرجعوا أفعال العباد إلى القدر[٢] .

ثانياً — صفات الله . عمد المعتزلة إلى تنزيهه تعالى عن كل صفات قائمة بذاته مثل القدرة والإرادة والسمع والبصر ، والحياة والكلام ، أى أنه لا انفصال لصفاته عن ذاته . فالله قادر بذاته ؛ فى حين يرى أهل السنة أن الله قدير بقدرة ، وهى صفة قائمة بالذات[٣] وليست عين الذات .

---

(١) الخضرى ٢٣٢/٢٣٣ .

(٢) راجع رد ابن قتيبة على ذلك فى « تأويل مختلف الحديث » ٥ — ١٩ .

(٣) تفرع على هذه المسألة مسألة خلق القرآن ، فقد ذكر المعتزلة أنه مخلوق ، وأنه خلق معنى فى قلب الرسول ، وأما اللفظ والأسلوب فليسا من كلام الله لأنه شيء محدود ، ولا يجوز أن نصف الله بصفة محدودة ، (راجع حجج النبوة للجاحظ من رسائل الجاحظ ط السندوبى) ، على حين يرى أهل السنة أن القرآن بكل حال مقروءاً ومكتوباً ومسموعاً ومحفوظاً غير مخلوق .

ثالثاً — هناك جملة مسائل أخرى كانت موضع خلاف بين الطائفتين تقل عن المسألتين السابقتين أهمية ومنها مسألة الحديث وتدقيق المعتزلة فى روايته والاعتماد عليه ، والقول فى إعجاز القرآن ، ويرى بعض المعتزلة كالنظام أنه معجز بالصرفة ، أى أن أسلوبه فى قدرة العرب ، وإنما صرفهم الله عن تقليده ؛ فى حين يجمع أهل السنة وجماعة من المعتزلة على إعجاز القرآن فى بيانه لأنه فوق مستوى قدرهم . وسنعرض عند الكلام عن موقف ابن قتيبة من المعتزلة بشىء من التفصيل لتلك المسائل جميعاً .

ج — العلوم الدينية :

نشطت الدراسات الدينية المختلفة ، وخاصة ما يتصل منها بأصول الدين والعقيدة ، وكان لحركة الاعتزال كما بينا أثر كبير فى ذلك النشاط ، فقد تزود أهل ذلك العصر بكثير من العلوم العقلية من تراث الأمم المختلفة كاليونان والفرس والهنود ، واستخدموا ذلك الزاد فى بحوثهم الدينية فى الإسلام ، كما أن ترجمة كثير من الكتب الدينية كالتوراة ، والإنجيل ، والاطلاع على غير الكتب السماوية ككتاب « أفستا » لزرادشت وغيره ساعدت كثيراً فى ازدهار البحوث الدينية ، ولعل من أبرز أبطالها فى هذا العصر النظام ، والجاحظ ، وابن قتيبة .

وصاحَبَ تلك الحركة حركات أخرى وجهت عنايتها للقرآن نفسه فى مختلف نواحيه ؛ تفسيره ، وغريبه ، ومشكله . وقامت جماعة اللغويين بدراسة أسلوب القرآن من ناحيته اللغوية ، ألفاظه ومعانيها ، وتراكيبها ، كما اتجهت جماعة الإخباريين إلى جمع ما يدور حول الآيات من أسباب النزول ، والظروف والملابسات المختلفة . وما قيل فى تأويلها من الصحابة والسابقين . فى حين وجهت جماعة أخرى عنايتها إلى ما ينطوى عليه أسلوب القرآن من ضروب النكت البيانية والمعنوية ، وكان هدف هذه الجماعة الأخيرة أن تجلى ما قد يغمض على بعض الأفهام ، أو يستشكل أمام بعض العقول من آيات المتشابه ،

فكان عليها أن ترد المطاعن والشكوك .

وحظى الحديث بما حظى به القرآن من العناية والدراسة ، فتناولوه بالجمع ، والتنقية والشرح ، وإفراد الغريب ، وتوضيح مشكله . وقد تعرضت دراسات الحديث لكثير من الجدل بين المعتزلة وأهل السنة . وذلك لأن المعتزلة كانوا يشكون فى كل حديث لا يتفق والأصول التى يرونها ، كما طعن بعضهم فى مبدأ الأخذ بالإجماع ، فقال النظام إنه يجوز الإجماع على الخطأ . ولكن أهل السنة جمعوا كثيراً من الأحاديث وضمنوها كتباً تعد من أهم ما ظهر فى الحديث مثل مسند أحمد بن حنبل ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وابن ماجة ، وابن داوود ، والترمذى والنسائى .

وتبع ازدهار دراسات القرآن والحديث ازدهار الشريعة والفقه ، ومن أبرز فقهاء العصر الإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل ، وكان الفقهاء فى أول العصر العباسى قد انقسموا إلى قسمين : أهل الحديث ، وأهل القياس ، وكان على رأس الفريق الأول عالم المدينة مالك بن أنس والشافعى وابن حنبل ، ووقف على رأس الفريق الثانى الإمام أبو حنيفة النعمان . وكان الشافعى يقول : إذا وجدتم لى مذهباً ووجدتم خبراً على خلاف مذهبى ، فاعلموا أن مذهبى ذلك الخبر .

وقد عاصر ابن قتيبة من الأئمة الأربعة أحمد بن حنبل (ت سنة ٢٤١ هـ) وكان مذهبه رد فعل لحركة المعتزلة ونتيجة لشيوع كثير من العقائد المختلطة الوافدة من الشرق والغرب ، فكانت دعوته إلى التمسك بالحديث والسنة ؛ والتشدد فى ذلك حتى ضرب بها المثل رغبة فى المحافظة على قدسية العقيدة أمام التيارات الغريبة .

د — العلوم العقلية :

أشرنا إلى اهتمام الناس بالعلوم العقلية ، وذكرنا ما كان من عناية المأمون

بها وحث الناس على البحث والمناظرة ، والترجمة عن اليونان والفرس ، وكان المأمون معجباً بفلاسفة اليونان وخاصة أرسطاليس ، وحدثت بين المأمون وملك الروم مراسلات طلب المأمون إليه فيها أن يبعث بما عنده من مختار العلوم القديمة ، وأوفد لذلك جماعة من العلماء من بينهم الحجاج بن مطر وابن البطريق . فاختاروا مما وجدوه وحملوه إليه فأمرهم بنقله فنقل . وقد بلغ عدد الكتب التى نقلت عن اليونانية فى ذلك العصر بضع مئات[1] فى الفلسفة والأدب والمنطق لأفلاطون وأرسطو وفى الطب لأبقراط وجالينوس ، وفى الرياضيات والنجوم لإقليدس وأرشميدس وغيرهما . واشتهر من النقلة على ذلك العهد حنين بن إسحاق (ت سنة ٢٦٠ هـ) ، شجعه بنو المنجم على الرحلة إلى بلاد الروم لنقل الكتب ، وكان فصيحاً باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية .

وكان نتيجة لتلك الحركة الواسعة ، انكباب العرب على دراستها والإفادة منها ونبغ جماعة من بينهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وفيلسوف العرب الكندى يعقوب بن إسحاق .

ويمكن أن نسجل ظاهرة تسترعى الانتباه ، وهى أن العرب حين ترجموا كثيراً من تراث اليونان لم يتعرضوا لآدابهم القديمة مثل الإلياذة والأوذيسة لهوميروس ، ولعل السبب هو ما كانت تفيض به من حكاية لأخبار الآلهة ، مما يتنافى مع العقيدة الإسلامية لذلك نبذوها ولم يهتموا بها .

(هـ) العلوم اللغوية والأدبية :

سبقت هذا العصر حركة بعث لغوية قادها جماعة من اللغويين النابهين فاشتهر بدراسات النحو من البصريين ، إمامهم سيبويه ، ومن الكوفيين الكسائى ، وتبعهم فى رواية اللغة أبو عبيدة والأصمعى والفراء والأخفش وأبو حاتم السجستانى وابن السكيت وابن الأعرابى ، وأبو زيد الأنصارى ، وأبو عبيد القاسم بن

---

(١) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجى زيدان حـ ٢ .

سلام، والمازنى ، وثعلب، والمبرد . وكان لكل عالم من هؤلاء اتجاهه الذى غلب على كتبه وصبغها بصبغة خاصة : فأبو عبيدة راوية لغة وأخبار ، وكتابه المشهور به والمطبوع « نقائض جرير والفرزدق » شاهد صدق على ذلك ، كما أن له كتاب « مجاز القرآن » فى تفسير القرآن تفسيراً لغوياً ، والأصمعى عالم لغة مدقق، وصف مذهبه « بالتنقية اللغوية »[١] ، ولا يخلو كتاب من كتب المتأخرين فى اللغة وتفسير الشعر من نقل عنه أو إشارة إليه . كما اشتهر أمثال أبى عبيد القاسم بن سلام ، وأبى حاتم السجستانى بالتأليف فى غريب القرآن وغريب الحديث ، ويروى عن أبى عبيدة أنه ألف بضعة وعشرين كتاباً فى القرآن والحديث وغريبهما[٢] واهتم المازنى بالتصريف ، وقيل إنه أول من دون علم التصريف ، وكان متصلا بالنحو[٣] . وعرف ابن السكيت بأنه كان آخر نحاة الكوفة ، ومن كتبه المعروفة « إصلاح المنطق » ، و « تهذيب الألفاظ » . واتجه بعض أولئك اللغويين إلى الأدب ، فجمعوا النوادر الأدبية كنوادر أبى زيد ، أو جمعوا النوادر الشعرية كما فعل القرشى فى الجمهرة ، أو شرحوا الدواوين كما فعل ثعلب فى شرح ديوان زهير ، أو ألفوا بين الأدب واللغة فى كتب جامعة كما فعل المبرد فى « الكامل فى اللغة والأدب » .

وشهد العصر نهضة أدبية واسعة شملت جميع جوانب الأدب ، كالأخبار الأدبية والشعر ، والكتابة والنقد : فمن اهتم بالأخبار الأدبية والنقد معاً محمد ابن سلام الجمحى الناقد الراوية (ت سنة ٢٣٢ هـ) ، وكان عالماً بالشعر والأخبار ، واشتهر كتابه « طبقات فحول الشعراء » . وكان من أول ما ألف فى موضوعه ، وقد قسم فيه الشعراء فى الجاهلية والإسلام إلى طبقات ، وتعرض للشعر وأصوله ، وأثر البيئة فيه ، كما تعرض لمقاييس الحكم على الشعراء وصلتها

---

(١) كتاب « العربية » ليوهان فك .

(٢) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجى زيدان .

(٣) نفس المصدر .

بالقلة والكثرة فى إنتاجهم .

واشتهر من الشعراء جماعة من الفحول المبرزين كأبى تمام حبيب بن أوس الطائى وأبى عبادة البحترى ودعبل ، وابن الرومى وابن المعتز .

وكان لكل شاعر من هؤلاء لونه واتجاهه الموضوعى والفنى ، فقد عرف أبو تمام بميله للصنعة والتكلف فى شعره ، كما عرف بإغراقه فى المعانى ، إلا أنه مع ذلك كان يتمتع بشاعرية غنية أضفت على قصائده رونقاً وجمالاً وقوة أسر . ويقابل أبا تمام ويعاكسه فى اتجاهه البحترى فقد عرف برقة شعره ، وحسن ديباجته ، وجرس ألفاظه ، وبمائه ورونقه حتى إن كثيراً من النقاد مثل الآمدى فضله على أبى تمام ، وكان لا يميل فى معانيه إلى العمق والتعقيد وإعمال المنطق ، بل كان يقول للمنطقيين :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه

وعرف دعبل بقصائد العلوية ، واشتهر بين الناس بسلاطة اللسان ، والهجاء اللاذع ، ولم يخل كلامه من معان رائقة تداولتها كتب البلاغة مثل بيته المشهور :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وانفرد ابن الرومى بطابع وحده ، ونسيج لم يشاركه فيه غيره ، فقد عرف بتوليد المعانى وتنويعها ، وطول النفس ، واستخدامه للألفاظ فى صور حية ناطقة ، وأما ابن المعتز فهو الشاعر الأمير ذو التشبيهات الرائعة ، والألوان الزاهية البراقة الناطقة بالنعمة والجمال الفنى .

وقد غلبت على الشعر فى هذا العصر الاتجاهات الجديدة فى المعانى والأساليب والتى بدأت تظهر على لسان بشار ، وأبى نواس وطبقته كمسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك الخليع . وكان من شأن هذه الاتجاهات أن تثير جدالاً طويلا بين المحافظين من اللغويين ومن جرى على نهجهم ، وبين تلك الطبقة من الشعراء ، ومن سار على مذاهبهم من الكتاب ، ومن وافقهم من النقاد والأدباء . لهذا كان القرن الثالث ، وخاصة النصف الأخير منه بدءاً لحركة قوية فى النقد كان من أعلامها المبرزين الجاحظ وابن قتيبة ، وابن المعتز .